التعاون
من الناحية الخلقية

للدكتور منصور فهمى بك
المدير العام لدار الكتب المصرية

خلق الإنسان مدنيا بفطرته . وإن غريزة المدنية والاجتماع هى أصل تتفرع عنه نزعات التعاون . و إذن حين ينشد المصلحون نظم التعاون فى الجماعات ، وحين يجعلون الدعوة إليه مصدرا من مصادر الاصلاح ، يسايرون الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

رب معترض يقول " إذا كانت نزعات التعاون متفرعة عن فطرة الناس ومتصلة بطبيعتهم فهل هم فى حاجة مع ذلك لمن يوجههم للفطرة أو يناديهم للطبيعة ؟ " لكن لاسبيل لهذا الاعتراض إذا تذكر المعترض أن الناس والجماعات البشرية قد ينصرفون أحيانا عن مراكز فطرتهم السليمة ، و يغفلون أحيانا عن وحى طبائعهم النيرة إلى أن يهديهم هدى العقل والتفكير ليسنوا لغرائزهم نظاما يحد من شرودها وانحرافها .

فالحرص على صحة البدن وسلامته — مع أنه ميل فطرى للانسان فى طبعه — لم يحل تأصله فى الطبع دون توجيه العقل وهداه لأيسر الوسائل إلى بلوغ العافية ، ولتجنب كثير من الآلام حين نخضع أنفسنا لقواعد الصحة والتطبيب . وكذلك سنجد من العقل هاديا ومن العلم مرشدا إلى أفضل الأساليب التى يجرى فيها التعاون لمصلحة الفرد ولمصلحة الأمة وسلامتها برغم مافطر عليه الإنسان من معاونة أخيه الإنسان .

لاتنفرد أدلة المنطق وحدها باثبات أن التعاون على شتى صوره هو فى طبيعة الانسانية ، وأنه من الأسباب التى يتخذها البشر لسعادته ، وأنه من الوسائل التى تتخذها الأمم لعظمتها المرجوة . ففى المشاهدات والآثار التاريخية ما يثبت أن تنظيم النزعات التعاونية كان منذ الغابر البعيد ، ففيها ما يدل على أن الصينيين والمصريين والكلدانيين والعبرانيين واليونان والروم وأمم القرون المتوسطة كلهم عرفوا أنواعا من نظم التعاون وحاولوا وضع التشريع لها . وكما أن الدنيا القديمة عنيت بأمور التعاون فكذلك فعلت أمم الدنيا الحديثة ، على أنه رغم المحاولات الكريمة النبيلة التى تحاولها الإنسانية جمعاء فى الغابر وفى الحاضر لم يظفر الناس بعد

بجميع النتائج المأمولة فى إسعاد النفوس وصرفها عن الأنانية والأثرة والتنازع السيء فى الحياة . لكن بالرغم من ذلك سيزداد حظ العالم من السعادة كلما أمعن الناس فى تنظيم الحياة التعاونية بينهم .

وكما أنه لا يضير الرياضى الذى يتطلع لبلوغ قمة الجبل الأشم ليشرف على منظر فتان أن يضنيه التعب والعناء فيقف مضطربا خائر القوى فى منتصف الطريق دون أن يصل إلى غايته ، كذلك ليس بضائر لطلاب الخير من سبيل التعاون أن يعوقوا فى الطريق أحيانا وهم إلى غايتهم جادون ، ولربما يأتى يوم على الرياضى يصل فيه إلى قمة الجبل ويتمتع بما كان يأمل من المنظر الساحر ، ويأتى يوم على مؤملى السعادة من سبيل التعاون يصلون فيه إلى غايتهم من إسعاد بعضهم بعضا وتغلبهم على مساوئ الحياة الاجتماعية .

لقد نزعت مصر الحديثة من نيف وثلاثين سنة الى تنظيم الحركات التعاونية ، وكان من أبرز العاملين فى ذلك ممن قضوا نحبهم المرحومان . " عمر لطفى " وشقيقه " أحمد لطفى " وشد أزرهما المغفور له عظمة السلطان " حسين كامل " . وسار مسيرهم فى هذا الطريق الاصلاحى عدد من أفاضل المصريين ألفوا المؤلفات ، وجاهدوا لتحقيق ما استطاعوا تحقيقه من جماعات التعاون .

وكذلك نشطت الحكومات المصرية المتتابعة فى تعضيد النهضة التعاونية وسن القوانين الخاصة بذلك ، وإنشاء الإدارات لتنشيط هذه الحركة المباركة الى أن أنشئت وزارة بأسرها مرجوة النفع والتوفيق أصبح من عملها أن ترعى الشؤون الاجتماعية ، ومن أظهر ما ترعى شؤون التعاون . على أنه لا تكفى دعوة الدعاة ولا تشريع المشترعين ولا آمال الحكومات لتحقيق خير التعاون مالم يثبت فى قلوب الناس روحه ومالم يؤمنوا برسالته .

وليس فى وسعى اليوم مع ضيق المجال أن ألم بفوائد التعاون ، وأفصل حسناته ، وحسبى أن أشير من الوجهة الخلقية الى أن العاملين فى جمعية التعاون حين يعملون لأنفسهم ولغيرهم من الناس إنما يروضون أنفسهم على خير ما جاءت به المبادئ الإنسانية العالية من نزعات الحب والإحسان . ويطبعون قلوبهم بخير ما جاءت به الكتب المنزلة من مؤازرة المرء لأخيه . وما أسعد الإنسان حين يشعر أنه فى حياته قد حقق ما أمر الله به ، وما أسعده حين يشعر أنه سيلقى وجه ربه وقد عمل فى دنياه كما أراد ربه أن يعمل المقربون .

بقدر ما تتعدد وتزداد جمعيات التعاون — وهى بطبيعة وجودها لا تتنافس إلا فى حدود الحسنى — تزداد الصلات بين أهل الوطن وتنمو معانى الأخوة والغيرية وتتدرج بالناس إلى آداب التزابط من تبادل الرأى بالمعروف ، واعتياد حياة الشورى الصادقة ، وتبادل الثقة وما تؤدى إليه الثقة من صفات المروءة وتسيير المودة وفضائل المجاملة . وبالجملة فى التعاون تربية خلقية عملية تتهادى من سبيل الصلات المادية إلى إنعاش الحياة الأدبية والروحية .

وإنى حين أشير إلى ما لجمعيات التعاون من أثر تهذيبى أقدر ما ينبغى أن يلاحظ فى بداية تكوين تلك الجمعيات إذ تقتضى كل جماعة ناشئة للتعاون أن يتشبع المقبلون على إنشائها بروح التفاؤل والاستبشار ، ويحسن الظن فى عالم ينبت الخير مستورا فى نواحيه ، وبالاعتقاد أن تآزر الإدارات الصالحة فيه تيسير للوصول إلى هذا الخير المستور . وخلاصة القول أنه ينبغى لمن يؤسس جمعية للتعاون أن يثق بعون الله ما دام العبد فى عون أخيه .

وعلى ذلك يجب على كل فرد من أفراد الأسرة التعاونية أن يؤمن بواجبه فى اختيار من يوكل اليهم إدارة هذه الجماعات ، فيصطفون لذلك أتقى رفاقهم سمعة وأكثرهم قبولا لمبادئ الغيرية وأنشطهم نفعا لما يتصل بالصالح العام . فإذا حسن اختيار القادة لهذه الجمعيات تنمو وتترعرع فى منابت الثقة وتؤتى أكلها الصالحة .

وإذا كنت اليوم أكتفى بهذه الكلمة الوجيزة فى صلة الجمعيات التعاونية بالأخلاق وحسن تأثيرها فيها فينبغى أن أشير إلى ما يصح أن يكون للسيدات من أثر فى الجماعات التعاونية . فليس بخاف أن هذه الجمعيات وبخاصة جمعيات التعاون المنزلى قد ترصد من فضل فوائدها جزءا لأعمال البر والخير كإقامة الملاجئ ودور القراءة ودور اللهو المثقف البرىء وما إلى ذلك . ويخيل إلى أن المرأة بطبيعة ميولها القوية إلى نواحى الإحسان قد تستطيع أن تستغل سريان الروح التعاونية لتنظيم مؤسسات البر والإحسان .

وزيادة على ذلك فإن المرأة بحكم منزلتها فى إدارة البيت يصح أن يكون موقفها من جمعيات التعاون المنزلى موقف الناقد البصير ، والمشير الأمين ، لتحسين شؤون هذه الجمعيات وتنشيط أعمالها بالاقبال على معاملتها دون غيرها من المتاجر .

فنهيب بالسيدات ، وقد كثر فيهن المتعلمات واشتركن فى مظاهر الحياة الاجتماعية ، أن ينشطن بعض النشاط فى جماعات منفردة لخدمة المبادئ التعاونية .

وإنى أرجو أنه متى صحت عزيمة الآباء والناشئين على الانضواء تحت راية الحركة التعاونية ، وصحت عزيمة الأمهات المثقفات والفتيات على السير فى كتائبها ، وصحت اتجاهات التربية والتعليم فى مدارسنا على بث الحياة الغيرية والتعاونية ومبادئ الخلق الكريم فى النشاط المدرسى ، أرجو عندئذ أن مصر حين تترامى فى نهضتها ما بين أحضان الآباء والأمهات والأبناء المتعاونين ستبلغ شأوها الأعلى فى حياة الانسانية ومركزها الجدير بها بين الأمم .

منصور فهمى